الخطوةُ الأولى بعد الخمسين

كمن وُلد أعمى،
وظلّ خمسينَ عامًا .. فأبصر
أنظرُ حولي وأشهقُ،
أشهقُ من أنْ أرى،
وممّا أرى ..
كائنٌ كبيرٌ مخيفٌ .. وجميلٌ.
يسمّونه الوجود.
يسمّونه البراحَ ممرّي في الخيال الذي
كانَ لا يفضي إلا إلى خطوطٍ متقاطعةٍ،
يسمونه الجمالَ، عناقُ الأشياء،
كان أكبر من حجم شوقي ومن توقّعي.

ما أغربَ أن يدورَ المرءُ
حول نفسه هكذا .. وهكذا ..

ما أجملَ أن يعدو،
ويكبو ويقفز بلا هدفٍ
سوى ممارسةِ علاقةٍ كاملةٍ مع الحريّةِ،
ما أعجبَ أن يمد ذراعًا لنجمةٍ تائهةٍ
أو حجرٍ عاجزٍ ..
وأن يسيرَ بلا عائقٍ ولا حذرٍ
ولا خُطّةٍ مسبقةٍ مكتوبةٍ في لوحِ الإله.
سعيدٌ، غير أنّ حزنًا ما،
كذبابةٍ غريبةٍ تدخل حجرةً مغلقةً نظيفة،
يشدني إلى شعور قديم،
أراني فيه قائدَ طائرةٍ، بعد أول إقلاعٍ،
يحنّ إلى شيء آخرَ .. إلى صهوةِ جواد،
إنه أعلى وأسرع ..
لكنه محرومٌ من زهو الخطى الثابتة
وإيقاع السنابك،
غير أنه، بعد خطوةٍ وأخرى،
وشهقةٍ وأخرى، سَرعان ما يزول،

كما تزولُ رغبةٌ عنيفةٌ في العودة
بعد بكاءٍ عابرٍ على أطلالِ منزلٍ، أو طفولة،
أو مسلماتٍ سابقةٍ قديمة.

هكذا تكونُ أولُ جولةٍ
في وطن جديدٍ
لغريبٍ هاربٍ
من وطنٍ ضيّقٍ مُضطهِدٍ.
وهكذا تكونُ أولُ قصيدةِ نثرٍ
لشاعرٍ خليليٍّ
في عامِه الخمسين.

تعريف جديد للقصيدة القديمة

القصيدة،
القصيدةُ الحالية،
القصيدة الحالية في هذا السياق،
القصيدة الحالية في هذا السياق التي أقولها أنا،
القصيدة الحالية في هذا السياق التي أقولها أنا أو غيري،

تشبه امرأةً في شرفةٍ تبكي بحرقةٍ على طفلِ جارتِها المريضِ وهي غيرُ مباليةٍ بطفلها المحتضر .. خلفها ..

تشبه الغريقَ إذ ينفقُ آخر اللحظات في عد الموج العابر،

تشبه البَخورَ، البَخورَ الذي يخفي عفن الموتى في هذه المقبرة والتي نسميها الكرةَ الأرضية،

وهي تدور، في ذات التفعيلة، بموتاها، موتاها الأحياءِ، الأحياءِ في اعتقادهم،

تشبه الشاعرَ، شاعرَها الذي يسيرُ على حبلٍ ليعبر الهاوية متغافلًا بها عن السقوطِ، السقوط المحتوم ..

تشبهني أنا، أنا الذي عبر سِتَّمَائةَ كيلومترٍ فقط لتصفقوا
بعد أن يقول لكم: شكرًا.